العرب
الأربعاء 2020/11/25
السنة 43 العدد 11892

تونس تغني صليحة في الذكرى الـ62 لرحيلها

مسابقات شعرية وموسيقية تحتفي بالسجل الفني لمطربة تونس الأولى

في السادس والعشرين من شهر نوفمبر من كل عام تحتفي محافظة الكاف التونسية بذكرى رحيل المطربة صليحة، التي ظلت نموذجا للصوت الاستثنائي القادر على غناء كل المقامات، وها هي مدينتها ومسقط موهبتها بلدة نبّر تحتفي هذا العام، كعادتها، بالفنانة الراحلة عبر يوم موسيقي تحت عنوان "تونس تغني صليحة"، يجمع ثلة من الأصوات التونسية التي ستنشد على امتداد يوم كامل من سجلها الغنائي الزاخر بالطرب كلمة ولحنا.

إبراهيم عياري

تونس – يتزامن يوم 26 نوفمبر الجاري مع الذكرى الثانية والستين لوفاة صليحة (1914 – 1958)، المغنية الملقبة على مرّ الأجيال، بمطربة تونس الأولى.

وستقام بهذه المناسبة العديد من التظاهرات الفنية والثقافية، أبرزها ما سيحتضنه مسقط رأسها، محافظة الكاف، في الشمال الغربي التونسي، وفي منطقة نبّر بالتحديد، حيث تنظم المندوبية (المديرية) الجهوية للشؤون الثقافية، يوما موسيقيا يحمل عنوان "تونس تغني صليحة"، وذلك تحت شعار "المحافظة على الخصوصية والانفتاح على التجارب الفنية".

برنامج ثري

أعدّ المنظمون برنامجا يتضمّن قراءات فنية مستحدثة لموروث الفنانة مع المحافظة على خصوصيته، وهي مسابقة مفتوحة لكل الفرق الموسيقية، على أن تقدّم كل منها أغنيتين على الأقل، للفنانة صليحة.

وتقوم المسابقة على مدى التوفيق في إثراء الأغاني المقدّمة بإضافات إبداعية مبتكرة كالتوزيع الموسيقي وتوظيف الآلات الموسيقية، وكذلك تقنيات الأداء الفردي والجماعي، مع المحافظة على الخصوصية الفنية لأغاني الفنانة الراحلة من حيث اللهجة والمقام الموسيقي والروح الفنية.

كما تنتظم بالمناسبة أيضا، مسابقة شعرية، بشرط أن يكون النص جديدا ومستلهما من غناء وبيئة صليحة، وقابلا للتلحين.

ولم يستثن أو يستبعد الأطفال من هذه التظاهرة الفنية الثقافية التي ستقام بدار الثقافة في بلدة نبّر، التي سمّيت باسم ابنتها صليحة، وستقام مسابقة للغناء الفردي لاختيار أحسن صوت طفولي وشبابي.

وخصّصت اللجنة المنظمة والجهات الداعمة لهذا اليوم الاحتفالي، جوائز نقدية بهدف التشجيع والمحافظة والمواظبة على هذا الإرث الفني النفيس الذي تزخر به منطقة الكاف التي تعدّ بحق، عاصمة للفنون في تونس، وللغناء والمسرح على وجه التحديد.

ونظرا إلى الوضع الصحي الذي تمرّ به البلاد بسبب جائحة كورونا، ستقام بمناسبة الذكرى الـ62 لرحيل صليحة، سهرة فنية افتراضية، تحييها الفرقة الوطنية للموسيقى بقيادة المايسترو محمد الأسود، ومشاركة كل من المطربات؛ روضة عبدالله وناجحة جمال ولبنى نعمان وسيرين الحمامي ونورهان الهداوي، بالإضافة إلى المطرب صلاح مصباح.

وجاء في مطوية المهرجان "كانت صليحة ولا تزال نغمة معبرة وأغنية صادحة رددها جيل وشدا بها.. لكل هذا نحتفي بصليحة ونتجمّع حولها أبدا، نتعطر بعبيرها ونتعمّد بألحانها الخالدة، ونحن نعيش هذه الدورة الجديدة.. حتى تكون الدورة القادمة مغاربية منفتحة على مواهب ومبدعين وأساطين الموسيقى في مختلف الأقطار المغاربية كي نجعل من هذا المهرجان محجّا وقبلة للمتيمين بالموسيقى العربية التقليدية ومريدي الفن الجميل".

صليحة تظل أغنية أكبر من أن تسجن في أسطوانة أو شريط، إنها إحدى أساطير الغناء التونسي على الإطلاق

نجمة كل الأوقات

المطربة صليحة دخلت المخيال الشعبي التونسي، وقد استُلهمت من سيرة حياتها وندرة صوتها روايات وقصص أفلام سينمائية ومواضيع مسرحيات غنائية.

ولا يزال مقياس جودة الصوت وحسن الأداء في غالبية المسابقات الغنائية في تونس، هو تقديم أغنية أو مقطع من تراث سيدة الغناء التونسي بلا منازع.

يقول المؤرخ والناقد الفني التونسي محمد بوذينة، إن صليحة هي الوحيدة التي أحبّها الأغنياء والفقراء، الحضريون والريفيّون، ذلك أنها نهلت منذ طفولتها من منابع ألوان الغناء الريفي كـ"الصالحي" و"العروبي" في منطقة الشمال الغربي التونسي، وعند تنقلها إلى مدينة تونس صحبة شقيقتها بقصد العمل كخادمتين في منازل الأثرياء والميسورين، اكتشفها، وبالمصادفة، الموسيقي المعروف الباجي السرداحي، صاحب التخت الذي يعزف فيه على آلة العود، وذلك عندما استمع إلى صوتها ينبعث من فسحة إحدى المنازل سنة 1940، وسرعان ما تعرّف إليها وأعجب بما غنّت له فتبنّاها، وقدّمها إلى الإذاعة حيث اقترن بها اسمه، وأدمنت على صوتها آذان المستمعين.

الأقدار والمصادفات بدأت برسم مصير "صلّوحة الحنّاشيّة" (اسمها الحقيقي)، فقد شاءت الصدفة مرة ثانية، أن يحضر حفلها الأوّل المباشر المحامي المنصف العقبي، فهنّأها بالنجاح ودعاها صحبة الفرقة إلى حفل عائلي ببيته حضره ثلة من أعيان تونس ووجهائها كمصطفى صفر، شيخ المدينة ورئيس جمعيّة الرشيدية الموسيقية الشهيرة آنذاك، فدعاها إلى العمل فيها مقابل راتب شهري وإقامة مضمونة ومريحة مقابل التخلي عن مكتشفها الأوّل وعن المشاركة في الحفلات الخاصة والعامة. وهكذا أصبحت صليحة مطربة الرشيدية الأولى، بل نجمة تونس في الأربعينات والخمسينات، بلا منافس.

وتعدّ "الرشيدية" – نسبة لمحمد الرشيد باي (1710/ 1759)، أحد ملوك تونس المهتمين بالفن – من أعرق الفرق الفنية في تونس والعالم العربي، ولا يعتلي منصة الغناء فيها إلاّ أجود الأصوات وأكثرها صقلا وتمرسا. لكن صليحة غنّت جلّ أغانيها على تنوّع نغماتها ومقاماتها وموضوعاتها في إطار مدرسة الرشيدية الفنية وبعناية كبار المؤلفين والملحنين مثل العربي الكبادي وأحمد خيرالدّين وجلال الدّين النقّاش ومحمد المرزوقي، أما المغني والملحن خميّس الترنان، فقد استأثر بالنصيب الأكبر من الألحان التي قدّمت لصليحة، لعل أبرزها "ياللي بعدك ضيّع فكري" و"أم الحسن غنات فوق الشجرة" و"كيف دار كاس الحب".

وكان الرهان على نجاح مشروع صليحة، داخل الفرقة الرشيدية وقتها، هو إيجاد صنف أو توليفة تجمع بين صوت صليحة الواعد وما يمكن أداؤه وتقديمه من خلاله. ومع التجريب المكثّف والنبش في التراث رست صليحة ومن حولها على "الفوندو"، وهو قالب غنائي تراثي يجمع ويزاوج بين الغناء البدوي والحضري في مستوى النص والمقامات والإيقاعات.

ويذهب الكاتب والموثّق التونسي الصادق الرزقي، في كتابه "الأغاني التونسية"، إلى أن كلمة "فوندو" إيطالية المنشأ، تشير إلى نوع من الأحجار الكريمة، وأصبحت تستعمل في ما بعد للدلالة على نوع من الأغاني العتيقة التي تجمع بين الرصيد الكلاسيكي والشعبي مثل أغاني "فراق غزالي"، "يا خيل سالم"، "شوشانة"، "لميت لم المخايل"، وغيرها من تلك التي تؤالف بين اللونين الريفي والحضري، وكان ذلك انعكاسا لحقبة كثرت فيها ونشطت حركة النزوح من الريف إلى المدينة بسبب ظروف اجتماعية قاسية.

> المطربة التونسية استُلهمت من سيرة حياتها وندرة صوتها روايات وقصص أفلام سينمائية ومسرحيات غنائية

عبّرت صليحة بصوتها عن تحوّل كبير في تاريخ الغناء التونسي، الذي تزامن مع تقلبات سياسية واجتماعية عسيرة، واستوعبت تجارب موسعة ومختلفة ساهمت فيها ترسانة من الشعراء والموسيقيين. لكن المشروع الذي طمح إليه الرشيديون، انحصر تأثيره في تونس وبعض بلدان المغرب العربي، ولم يكتب له الانتشار خارج هذه المنطقة مثلما كان الأمر مع المصريين. ولأسباب يصعب حصرها لم يتمكّن المراهنون على صوت صليحة بكل مساحاته وقوّته وتلويناته، من جعل هذه الأسطورة الغنائية بمثابة أم كلثوم في مصر ضمن مشروعين فنيين ثقافيين – وحتى سياسيين – يتنافسان منذ ذلك الوقت وربما إلى الآن.

هذا التنوّع بين بيئة ريفية بسيطة ونقية رغم حالة العوز والفقر، أعطتها صفاء الصوت وعذوبته، وبين حياة مدنية مكنتها من الالتقاء بأشهر الموسيقيين والاستماع إليهم، وقد أكسبها هذا التنوّع غنى وتفردا في الشخصية، بالإضافة إلى تلك الدراما الهائلة من سيرة حياة مضطربة إلى حد التناقض، فمن فتاة ريفية مكسورة الجناح، قدمت إلى العاصمة كي تعمل خادمة من أجل كسب لقمة العيش، إلى مغنية في القصور وجليسة للأمراء وعلّية القوم.

صليحة تظل عصية على الترويض، وأغنية أكبر من أن تسجن في أسطوانة أو شريط.. إنها إحدى أساطير الغناء العربي على الإطلاق، أمّا عن عدم انتشار وشهرة أغانيها في العالم العربي، فأمر يعود بالدرجة الأولى إلى تقصير الآلة الإعلامية وتكاسل المبدعين التونسيين، بالإضافة إلى تقصير بعض أهل المشرق وعدم بذلهم جهدا كافيا لفهم اللهجة التونسية.

روضة عبدالله تغني صليحة في سهرة فنية افتراضية

«استاند» عرض إيمائي سوري يدعو إلى التسامح وتقبّل الآخر

بعد غيابه عن خشبة المسرح لأكثر من عشرين عاما عاد الفنان السوري محمد زكية معدا ومخرجا لعرضه المسرحي الجديد "استاند" الذي يندرج ضمن فن البانتومايم، وذلك بمشاركة عدد من الممثلين والممثلات الشباب تحت إشراف المخرجة المسرحية سهير برهوم.

دمشق – ضمن تنويعات إيقاعية وموسيقية أتت المسرحية الجديدة "استاند" للمخرج السوري محمد زكية إبرازا لفن البانتومايم، ومدى قدرته ومن خلاله قدرة الممثلين على التعبير في صمت، معتمدا في ذلك على فن الإيحاء والحديث بلغة الجسد مع سينوغرافيا بصرية متحركة وغرافيك مرافق للعديد من اللوحات الراقصة التي شكلّت مجمل العرض الذي قدّم على امتداد أربعين دقيقة، 8 لوحات بموضوعات مختلفة مثل: "فنان تشكيلي"، "ثورة النمل"، "مطلوب موظف"، "الإدمان على الإنترنت" و"الراقصة".

والعرض الذي أتى نتيجة ورشة عمل أدارها زكية على مدار شهرين، قبل أن يعرض على صالة ومسرح الحمراء الدمشقي، أمّنه ثمانية من المؤدّين الهواة هم: ميريانا حداد، وفيصل سعدون، ومادونا حنا، وعبير بيطار، وفراس سلوم، ووسام صبح، وحسام تكلة وبثينة ياسين، قدّموا جهدا استثنائيا من حيث التزامهم بآليات المسرح الإيمائي، مُستعيدين التقاليد والمفردات في مسرح البانتومايم عبر لوحات منفصلة، تنوّعت بين الإيماء الفردي والثنائي والجماعي بشكل تجريدي، مستعرضين قصصا بسيطة في ظاهرها لكنها عميقة في باطنها كلوحة "الإدمان على الإنترنت" التي تنتقد الهوس المفرط للشباب بمواقع التواصل الاجتماعي التي تسبّبت في إلهائهم عن حيواتهم الخاصة، فلم يفلحوا في الاثنين، أي في عالمهم الافتراضي والواقعي على السواء.

العرض الصامت انتقد بشكل كاريكاتيري عبر العديد من اللوحات المنفصلة والمتصلة أيضا سطوة السلطة على الحشود ورفض الأفراد ومن ثمة المجتمعات لها ولمرجعياتها الأيديولويجية التي تكبّل حرياتهم، فعبّروا من خلال الرقص والإيماء الإيحائي حينا والتجريدي في أحيان أخرى عن رفضهم للأفكار الرجعية والتسلطية بشتى أشكالها وتنوّع ممارساتها، مُعربين عن حقّهم في الخلاص من نموذج الفرد الواحد الذي لا يؤمن بالاختلاف والتنوع والتعدّد.

وعن أهمية العرض قالت مديرة المسرح القومي السوري سهير برهوم "من النادر تقديم عرض بانتومايم على المسارح السورية، وهذا ما دفعنا لتبني هذه الفكرة فوجوده يعطي التنوّع لعروض المسرح القومي ويشكل فرصة للجمهور للتعرف على هذا الفن" مبيّنة أنها حرصت على حضور كل بروفات العرض ومتابعة كل تفاصيله للوصول لأفضل نتيجة.

وتؤكّد برهوم أن المغامرة الحقيقية في العرض تأتي من خلال الاشتغال مع مجموعة من الشباب ممّن لا يملكون خبرة أو معرفة سابقة بفن البانتومايم، ولكن الثقة بالمخرج زكية مع اجتهاد الجميع مكّنهم من تجاوز الصعوبات والاستفادة من وجود مصمّم السينوغرافيا البصرية المحترف بسام حميدي ومصمم الغرافيك المهندس فراس قنوت.

وأوضحت الممثلة مادونا حنا المشاركة في العرض أنها مع زملائها الممثلين والممثلات بذلوا الكثير من الجهد والطاقة خلال البروفات، رغم صعوبة هذا النوع من العروض، لأنه لا يعتمد الحوار بل على فصل الحواس عند الممثل والتعبير من خلال الحركة والوجه فقط.

وعن مسرح البانتومايم قال المخرج محمد زكية "هذا المسرح من أصعب أنواع الأداء المسرحي ومختلف عن سواه لكونه يعتمد على جسد الممثل في التعبير من خلال الإيحاءات التي تتواجد في اللوحة التي يؤديها حسب دوره، وهو فن له قواعده"، مشيرا إلى أن الممثلين الثمانية المشاركين استطاعوا امتلاك معرفة في فن البانتومايم التي عكسوها من خلال العرض.

وتتلمذ زكية على يد المخرج الراحل سمير الحكيم من خلال فرقة المسرح الوطني، التي كانت رديفا للمسرح القومي السوري. وهو الذي درس فن البانتومايم والباليه والفن التعبيري في بيلاروسيا في بداية التسعينات، قبل أن يعود إلى سوريا مقدّما من خلال المسرح القومي عرض "النافذة" على خشبة مسرح الحمراء، كما قام بتدريب مجموعة من الفنانين على هذا الفن منهم الفنانة ندى الحمصي.

إلاّ أنه سرعان ما سافر إلى إحدى دول الخليج، وهناك أسّس أكاديمية صغيرة في فن البانتومايم أثمرت عرض "نونو يا نونو" الذي شارك إلى جانب 42 عرضا في أحد المهرجانات الدولية، وكان العرض العربي الوحيد الذي حصل على الجائزة الذهبية لخصوصية الموضوع الإنساني الذي تناوله، ثم أنجز عرضا آخر شارك به في مهرجان سوتشي بروسيا.

والبانتومايم هو نوع من فن التمثيل الصامت المؤدّى من قبل فنان أو مجموعة فنانين على خشبة المسرح، بغرض التعبير عن الأفكار والمشاعر والآراء عن طريق الحركة الإيحائية للجسم فقط.

ويعود أصل كلمة البانتوميم إلى اللغة اليونانية، وهي مشتقة من كلمتين "بانتو" وتعني الانبهار، و"مايم" وتعني يقلّد، وبجمع الشقين تكون الانبهار من التقليد، لكن المتعارف أن من يؤدّي هذا النوع من الفن يسمى بـ"الفنان الإيحائي".

والبانتومايم له تاريخ طويل، حيث عرف في البداية مع المصريين القدامى فعندما كان الملك لا يحضر المعركة كان يقوم بهلوانات البلاط بالتمثيل الصامت أمام الملك ليشرحوا له المعركة، وذلك عن طريق تأدية حركات تقليد ورقصات بغرض التعبير، لكن هذا الفن عرف أكثر على أيدي اليونانيين الذين طوّروه وقاموا بتأديته على المسرح عن طريق عروض كبيرة ثم تتطوّر إلى استخدام الآهات، ولكن هذا النوع أثار استنفار الجماهير للأصوات المزعجة وعاد مرة أخرى إلى رونقه الصامت.

> العرض الصامت انتقد بشكل كاريكاتيري عبر العديد من اللوحات سطوة السلطة ومدى تحكمها في مصائر البشر

نقد إيمائي لاذع